قناديل لرصيفٍ أوروبيّ

مدونة ابو عبدو

بشير البكر

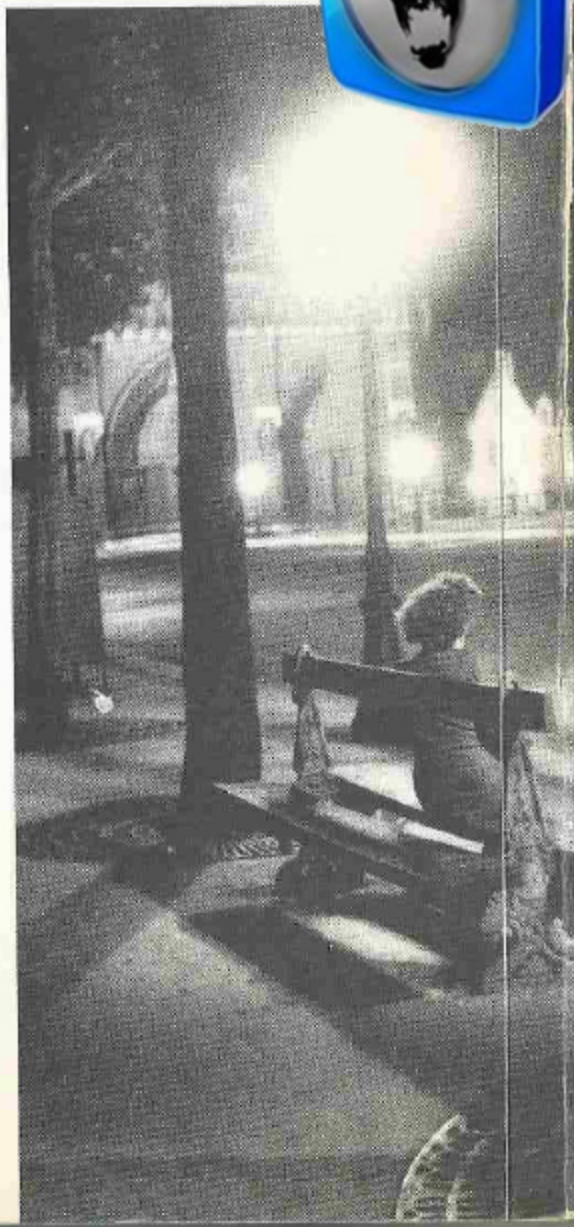

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار الجديد

بشير البكر

قناديل لرصيف أوروبي

دار الجديد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف ـ الطبعة الأولى، ١٩٩٤

دار الجديد ✉ : ٥٢٢٢/ ١١ ـ ☎ : ٣٤٣٧٥٢ ـ نضّد النصوص: علي حمدان ـ ضبطها على أصولها: محمود عشاف ـ خطّ خطوط الغلاف: علي عاصي ـ رسّم الغلاف: محمّد شمس الدين.
لوحة الغلاف للمصوّرة Izis Bidermanas (*Paris des rêves*, Éditions Claire fontaine, Lausanne)

إلى سعاد
هذا بعض الشقاء

«لا أريد الرجوع إلى أحدٍ بعد هذا الخريف»

محمود درويش

نوڤمبر الرمادي

- ١ -

ليس نبيذاً أبيضَ،
ذلك الانكسارُ الوحشيُّ،
ذاك رنين العزلة.
ذات نوڤمبر ينشقّ القلب
تتساقط المواعيد،
من شهور وأيام خالية.
يتوقف النداء في المسرّات الحارّة
ليظلَّ نبض الغياب يدقُّ عالياً.
في الماضي تموتُ الأسماء،
ثمة حدّادون قبارصة يؤثّثون الأمس

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ماذا فعلت لك، كي تتسلّق تلك المسافة،
بين السقوط والانتحار.
ألم تبْنِ قلعةً من الندم،
ذات صباح، مُغْتسلاً بالطعنات؟
أنظر إلى أيّ حفرة يتسلّق الوقت،
كأنك تهوي، دونما يد تحاول آلتقاطك.
أيّ صديق سيكون لآرتطامك

أغنية

ليست روسيّة ولا بولونيّة
لا مثيل لتلك الإضاءة
ورقة السرخس الطريّة
تعبرك في آضطراب الندى
كم بقي من الوقت،
من الأصدقاء والحبّ وصهيل الكؤوس
كم لنا لنستديرَ إلى طفولة مُهشّمة؟
ثمّة نبيذ أشقر منمّش،

ABO ABDO ALBAGL

يهرب في سواقي الحنين
بين الحانة والأخرى، عاشق ميت
براغ ـ نانت ـ تونس ـ بيروت ـ دمشق ـ حلب
الحسكة مملكة القلب، التي أسّسها النسيان،
جاء البدو إلى هناك ليُعَمِّروا مدن الوهم
جاء الأكراد الغرباء، ليُؤَثِّثوا أقواسَ قزح للخراب.

أُغنية

في الساعة صفر،
لم يأتِ الثلج.
أيّ ميلاد يحتضن القلبَ،
القلبَ الذي يدقّ بآنتظار ؟

- ٤ -

لم تكن آمرأة في صفحة النبيذ،
في سورة الماء.
كأنّ التناغم يوقظ أسفاً قديماً.
كأنّ الرائحة تتسلّق الدرج،

لتحتلّ نوافذ المنام.
لسنا وحدنا، الناس يعبرون المحطّات.
لسنا وحدنا، الناس يلتهمون الأيّام.
تحتنا يجري الآخرون
بيننا تسافر الكلمات والأنهار والأسف.
ليس الصباح من يتحدّث إلينا،
إنّه الإفلاس والقلق والآنتحار،
هي الأيام الباقية، تُطلُّ برأسها
مُعلنةً دمار أرواحنا الأليفة.

ـ ٥ ـ

تلك كانت المسافات.
الربيع أبيض في رنين الأقداح
وتمتمات النشوة
عربات الخيول يجرُّها فقراء الريف.
لم يكن للموتى أمكنةٌ في الخرائط والتوابيت
كان المطرودونَ ينتظرون رائحة الوطن
في ضباب الصباح.

كأنّ الصعود إلى السماء مشفوع بالأوامر والتضحيات.
الأطفال يُعمّرون سجناً، السجناء يبنون وزارة
البغايا يخرجْنَ من الآيات
والموت يتساقط في ثمار الشهر الحادي عشر.

أُغنيـة

كأنّ الأحد منزوع من مُفَكِّرة الأسبوع
إنتظرتك الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء
الخميس، الجمعة
ويوم السبت، آسترحت إلى فاكهة الشكّ
والجنون.

- ٦ -

ليس نبيذاً أحمر
أو مساء يهبط هادئاً، مسالماً،
تلك رائحة حرائق الجروح والمسافات،
حيث بوّابات الأمس مفتوحة على النسيان

والطلقات الفارغة.

كلّ أمس يحفل بحديقة يأس
نفتح الدفاتر، لنرى السكاكين تلمع في بريق الكلام
إمرأة في الشرفة، تُسَوّي شعرها المُسترسل في اللغة
نبيّ يعرج في قلبك، ولا يتحدّث،
يجد نفسه في التاسعة مساءً
قريباً من رائحة الطلقة.

أُغنيـة

لا نساء في غُرف النوم، يحرسْنَ براءة القلب،
لا نساء في الأبراج يُؤَثِّثْنَ الأحلام والمنامات،
لا نساء في الشوارع، يلتقطْنَ عصافير الذبول،
في مداخن المدن
العالم ينكسر تحت أوامر العزلة،
وحده الألم يتحدّث في الثانية ليلاً
عندما تلفُظُنا الحانات والخوف،
مُنكسرين لا أحد في آنتظارنا،
هو البرد يتقدّم، كشجرة وحيدة في الريف.

مُطلقاً من النساء.

كنت قرب حافّة الأمل

وحيداً، أقطف الثّمار المُرّة

من وجوه العابرات.

لم تكن هُناك سوى الوجوه التي تَمُرّ

كان العُشّاق يتبادلون القُبّعات

خلف أسوار المنامات الشّهيّة

ويذهبون إلى أوطانهم البعيدة، قرب البُحيرات العالية.

أُغنيـة

إمرأة تُلَوِّحُ لي في غبش المرايا،

كانت ظلّاً من الفُلِّ والرخام.

لكنّي كنت غائماً بأسرار الصّباح

مطروباً ببقايا طعم حديث الأمس، تحت نوافذ الآخرين.

كانت الورود تُرمى نحو قوافل الجنود،

كان الجنودُ يذهبون إلى روائح البارود والغاز،

كان الموتى يحتلّون هباء حياتنا، الذي ضاع في التسكّع
فوق أرصفة البارات.

- ٨ -

لم تكن العِشْرة
كانت المودّة.
بين لحظة ويوم،
وطن آخر.
كأنّنا نُسافر لنسكن أسِرّة الآخرين،
كأنّ الآخرين، يتركون نساءهم وذكرياتهم
ويذهبون إلى العطلة،
بينما نسافر إلى حانة أُخرى
إلى الصّمت الجامد
بعيداً عن الريف والطيور والأنهار
كأنّ مدن الأسمنت تحمل أسماءنا.

أُغنيـة

لا تُنقّلْ نظرك كثيراً،
كُلّ النساء شقراوات

لا تذهب بعيداً في اللغة،
إذهب حتى نهاية الألم.
كُلُّ فرس ولها حصان
حتّى الحانات، يُباركها ملائكة سِرِّيُّون
باللّطف الليليّ
ما من سرير فارغ، ولا نجمة شاردة
تذكّر أنّك هنا، خلف هذا الصمت البارد
بلا أُغنية.

- ٩ -

نحن بقايا المُنشدين في آخر الليل،
لنا أوطان وأُمّهات،
ذكريات صغيرة وقصص حبّ بعيد.
نحن آخر الهامشيّين،
على ضجّة الجاز، تحت سماء النيون
فرح أرصفة أوروبا.

مقابر لشتاءات الحب

١ ـ سماء الوليمة

- ١ -

كان يُمكن لمياه النهر الأوّل أن تقودني إلى حافّة الربيع،
وأن تُحصيَ عظامي وتختزلَ متاعب القلب، ثم تتركني لنسيم براعم النار.
ولصديق الشراب أن يُسفر مساء عن بلاد من رائحة المطرودين،
وله أن يتذكّر الدبابات والمدفعية، وحواري تداعيات الماء القديم.
كان يُمكن لآمرأة الشارع أن تشقَّ ثوبها، وترتدي الأعلامَ المنكّسة.
ـ نحن الأشقياء منذ التقويم الأوّل لآختلاط الطبقات ـ
وكان يُمكن للصباح الأسود أن يفتح أبوابنا، ويُعثر أزهار الأزقّة كيفما آتفق،
كي يُطِلّ وجهُ ناتاشا القديمُ ذلك النرجسُ بالأبيض البريّ
وكان ينبغي لروّاد الأُمسية الأُولى أن يلمحوا جثّة غريقة،

في نهر أصداف الأحاديث الطويلة.
ـ نحن الحطب الأوّل لنار الآلهة ـ
مَسّنا جنون الحب. ها نحن نُقدّم رؤوسنا على مذابح خنادق الطفولة.
كان ينبغي للتذاكر أن تبدو سعيدة بوداعنا،
بين جرحين، أوّلهما آنا فالنتوفا، وأبعدهما فرس تحترق على حافة الفاكهاني.
كان للحجر أن ينكسر وللماء أن يحفل بالتعابير،
كان يُمكن، وكان ينبغي لآمرأة ما، أن تجرفنا إلى نزهة طويلة.

ـ ٢ ـ

أحياناً يُقفل الماضي أبوابه وشُرُفات القلب،
سأدَعُ لريح الماضي أن تقودني،
ولشُرُفات القلب أن تفتح أبوابها للزوّار والمصابيح.
في تلك الأحيان:
أحلام السرخس وآرتياد الحانات وأباريق الشاي،
مذابح العواطف والقطارات، العشب وطعم البرد والبكاء،
النار وأصابع شيرين وحريق الدّم الأوّل.
في تلك الأحيان:

كُنّا نسرق كأس كحول الماضي لنُعيد فتنة ماء
نكسر الأحاديث من حولنا، ويختفي بعضُنا وراء مواعيده،
لم يسعفنا طعم الأماسي، عندما تنحدر من المشنقة،
باسطة أصابع العشّاق، باعترافات الخجل وحياء الحبّ الأوّل.
وأوجاعها حين تُسفر الأماسي عن وداعات مُباغتة، عن مقتل الطائر.
ونحن عندما نُطِلُّ من أصابع التبغ محمولين على مراكب الهاوية،
نكتب بعض الإشارات التي تلمح عن آنتظار بطيء.
نُصادق امرأة لتتركنا وحيدين في البار، نسترسل في تذكّر أوصافها القاتلة،
نكتب في الشارع الأخير لها، عندما تكون مفتونة بطيورها الخاصة.
دمنا نبيذ الزيارات،
ها نحن نبسط شيئاً قصيّاً على الفهم.
أرسمي شواهد القبور. شواهد الغائبين،
ونكّسي أعلام الزيارات.
والحدائق التي ما بين قلبين أطفئي النار فيها،
هذه فأس الوطن، آجتثّي بها أشجار الطفولة،
آجتثي بها أزهار الحبّ.
نحن ننعم الآن بروائح جثث الماضي.
نمدّ أصابعنا إلى صدور المخلوقات،
ونُعيد حسابات الخبز والشاي ولا نحفل بالأرقام،
مليئة قلوبنا بالحبّ وكافة مشاريع تجديد الحياة،

مليئة بالرصاص وبأصناف الإنسان والأمراض،
بالضجر والحكمة والإفلاس وأحداث الأرض، ومُحيي الدين عربي وأندريه جيد
بمصّاصي الدماء وآكلي لحوم البشر، بالسادة.
قلوبنا مليئة برائحة الأحزاب،
قلوبنا مليئة بالماضي...
نتذّكر آمرأة ما، كانت تقودنا إلى نزهة في الطفولة،
تلك تدعى غادة قندلفت،
أخذتنا إلى مُنتزه في الرّبوة ولم تُعِدْنا،
ومنذ ذلك الربيع الأسود، سِرنا ضائعين،
كحمام البراري، الذي تُسَوِّدُهُ مداخن المدن،
بعبير الانتحار الأخضر.
أحياناً يُقفل الماضي أبوابه وتأتي حُمّى البحر بأفواج المُعَزّين.
سأدَعُ لحُمّى البحر أن تخدش خضرة المساء،
ولصوت البحر أن يكسر حياء الصلصال.
ولقلبي أن يلتفّ بالخرائط المهمّشة.
إنّ قلبي بنصفين، نصفه الآخر صديق صبايا الشام،
الفاحمات الشعور، الضاربات بأعماق سمرة الليل:
ليلى، نجوى، فادية، خُزامى، غادة.
إنّ قلبي كقلاع متطاحنة وبلاد مؤجلة،
إنه ينهض الآن بصعوبة الأجساد المُنْتَشَلَةِ من الزنزانات،

طائر أهلكته الهجرات والوفاء والحنين، يُطِلُّ عن كثب عندما يفلت بندول الوقت،

ليرتطم بجدار الأنهار والأيّام الأُولى،
حيث الأُمّهات يأكُلُهُنَّ الحنين لصدى بُكائنا الصامت،
قُبَيْلَ الانخراط في دفاتر المدارس والعقوبات،
بينما الاستعدادات ومحاكم التفتيش،
تجرُّ طفلاً مُلَوَّثاً بالطبشور لترسمه على هيئة مسيح،
يُرَتِّبُ قوانين الصلب.

- ٣ -

تجرفنا التداعيات القديمة، المُرّة،
فتتذكّر آمرأة من البانسيون، كانت تطعمنا،
وعندما نحكي، كانت تلفّ دموعنا بأوراق الرغبة،
وترسلها إلى اللّه.
وكانت تُرفق بنا هنري ميشو والنسخة الأُولى من 'قوت الأرض'،
حيث كان الماضي يُقفل أبوابه دائماً، ويُطِلُّ منه بكاء عجوز ريفيّة،
لأجل شابّ يُضَيِّع نفسه في مدن من قحط،
وينهار عن كتب وضحايا ونساء، لم نستطع التّشبُّثَ بهنَّ لحظات الوداع.

٢ ـ أنطولوجيا الشتات

ـ ١ ـ

منذ زمن، لم أُشاهِدْك تعبر ذلك الشارع،
والشمس تركض أمامك كفرس النهر الشمالي
أنت الذي لا طاقة له بآحتمال الأمل،
تسقط من أصابعك جمرة اللحظة،
ورقاً للحبّ فوق جدران سجن المزّة
لم أرك في صورة لوداع البواخر،
وقد تفرّست بك اللحظات، مُبدياً حباً لشيرين،
وبيروت تسقط خلفك في عربة الوهج،
يجرُّها حوذيّان بآتّجاه الفريسة.
كان الموتى يأتون إلى حلب، على ظهور الدوابّ،
وكانت الساحة العامّة تحتفل صيفاً ببكارة الفتيات ومهرجان القطن،
والدبابات 'T72' تلمُّ البراميل في آخر الليل،
تحرس أبواب الجرائد من عدوى الوطن.
أمّا الجنود، فقد كانوا يتلفّعون جبل الشيخ، ذاهبين إلى الحرب،
فقراء المقاطعات، يحملون الذخائر الفاسدة والبوارید العثمانية،

تجرّهم سلاسل الأوامر إلى دشم الموت خنقاً بالغاز.
أذكرُ أنَّ الزمن كان يضيق،
وكان الجنودُ يُجفّفونه، ويُرسلونه في قُبّعات إلى سيبيريا.
أمّا الوطن فقد كان ينتحب، قرب الحدود حاملاً مِظَلّته السوداء.

- ٢ -

قديماً كُنّا نقودُ النّساء من أصابعهن إلى الينابيع،
ننحر عجول الحلم، منطلقين إلى أوكتافيو باث كشمس من الحجر،
تهوي على دلتا الجنون البدائيّ.
حيث العربات الأُولى وأنهار الطمي، وبساتين الطفولة،
المورقة بالوحل والأكراد.

- ٣ -

قريباً سيأتي العربات والكهنة والأحزاب والبوليس،
مُدجّجين بالمصاحف والسجلّات وفواتير الحلم.
وفي آنطفاء الصباح الأوّل، مُدمِّراً حياتي بأطنان من ديناميت الفشل،
سأتمكّن من إطلاق رصاصة النهار على روحي،

ناسياً آثار المرأة في البيت وفوق رمل المساء.
قريباً يسكن الغبار ستائر الوقت الذي حفل بنا،
حيث تخلدني اللحظة هناك: إذ يقف بآنتظاري جبليان ليقوداني إلى حافّة الوطن،

لتجلس الدولة فوق قلبي وهي تُقَشّر ثمار العمر،
وتُلقي بها إلى سلّة مُهملات العقل الأمني الالكتروني،
ليصنع منها رقماً على غرار الرقم 2009.
قريباً لن يُفصح المساء عن أسرار جديدة،
فأنا وأنت يجرفنا وقت الخسارة،
تحت قوسٍ ينكسر حُبّنا إلى مليون جرح صغير،
ولا يستطيع حتّى فجر جديد أن يلمّه.
قريباً من حرائق القلب،
أرثي ربيعَ الحدائق، كيف تبدو أوراقها مُصْفَرّة،
والوردة الوحيدة ذابلة،
وفي فمها سؤال كآنفجار حُمرتها في المساء.
أرثي الربيع الذي قادني من يدي إلى البئر،
ورمى بي لحريق فراشات البحر،
احتفالاً بقناديل الزرقة ظهراً ـ «ديدون»،
لبلاد من الذئاب تُدَخّنُ أوراق المستقبل،
ناسية بكاء الحاضر، وهدير المساء فوق جثّة الآنتظار.

- ٤ -

مُتسكّعٌ حُبُّنا من وطن لآخر،
لا مُتَّسَعَ فيه للغياب.
فكُلّما وضعتك أمامي، تنفرد روحي بعويل طويل.
كالذي أحاق بيوليوس قيصر لحظة المهزلة.
وليس لي شجر دافىء لأُخفيك عن نفسي،
أنت من يتحدّثُ شعرُها للمواسم،
آسيا الخارجة من أصابع الفلّاحين إلى هواء الأفق،
مجدولة بملايين الجراح.
أنطق بآسمك مُتلعثماً،
ليس لي سوى هذا الجنون الذي يجرح اللّغة،
مرّة في العمر، كي أمشي إلى مهرجان الذبيحة،
كأس في أول النهار،
نبيذ في آخر اللّيل،
العربات مُطرقة تحت ظلال المطر،
في آخر الليل كأس واحدةٌ وكسرة خبز،
سائق التاكسي وسيارة البوليس،
وصوت أليسار في قاع البئر.

منفىً يمتدُّ من حجارة اليمن، إلى هواء الأوراس،
لعبة بحجم الخطورة،
مسرحيّة فاخرة... شواء ما بعد ظهيرة الحرب الأخيرة،
صفقة لنسف القلب.
تُجّار الحبوب والنِّفط والرصاص.
يختفي الشجر الأوّل في كؤوس النهار،
نغسل القمر الأخضر بنبيذ اللّيل،
أرضٌ واطئة وقلوب مُخَرَّمةٌ برصاص القوّادين،
شبكات لآسْتِجار نبض القلب،
ثورات لبناء مخابر تدمير العلاقات،
لتشغيل المُخبرين بفائض القيمة.
شركات مُتعدّدة لمُصادرة الفرح،
أجهزة لرصد فيضان الروح،
لأوطان كروائح المزابل،
مثلومة عرباتُنا في المفارق،
ورؤوسنا معصوبة بأغاني الحروب،
في كُلّ عاصمة جرح كبير،
نحن مَنْ شَجّ الحبّ قلبه،
نُملي لطائر الرعد تراتيل مريم، إذ تُوَدِّع ثورة بكر،

مشحونة في بواخر من طرف نابض في المتوسّط،
إلى سُلطة توزّع الفدائيّ على هيئة المطرودين من البندقية،
إلى الشجرة اليهوديّة اليابسة،
التي تتناسل قتلةً وصيارفةً ومنافي للأطفال.
في كل محطّة بلاد تُوَدّعنا،
في عربة تتدحرج بآتّجاه فضاء مفتوح،
عندما العشبة والزهرة المقدّسة،
تقودانك إلى قطيع من الأسرار، تدفنه ثلوج الرغبات المؤجّلة،
إذ يتفتّح دفء آمرأة ليلمّك من منافيك
... يتفتّح دفء آمرأة ليُبَعْثِرَكَ على هوامش البلدان.

- ٥ -

لصورة الصباح الخجول من آنية الزهر،
للوردةِ تشتعل في ذاكرة المنفى،
سماءُ تيودوراكيس وأنهار ڤاغنر،
لآختلافاتِ القلب في شُرفة الضاحية،
بعيداً عن شاليهات الطيور،
قرب سرير الحكمة،

يرقد فوق سرير حبّك، مشعّاً كجنّة عُطَيْل.
حقائب وقبعات المارينز
مدافع أنيقة للأحياء الأنيقة،
لنشيد قلب المصلوب، إذ أجراسُ الكنائس، في ظهيرة تُدَقّ،
لسماء مُعلّقة تسقط في راحة القلب
للرسائل والتفاصيل تتدلّى فراشات النّفْي
من حبال في مخيّلة الديكتاتور.
لأرض، لشعب تجرّه الأرقام، لمُخَيّلة ضائعة.
وفي الصّباح المفتوح، ماذا نُعِدُّ لنشيد القلب؛
إذ في القرنفل تسقط نجمتان في طريق المدرسة،
حين يتنفّس القلب عبير المُباشرة.
واضحٌ تحت شمس كانون الثاني، حُبّي ذاهب في يفاعة صفرة أوراق الخريف،
إذ في الشهوات السبع ينشقّ القلب مُقترناً بطائر الجمر،
الذي يتنفّس أحماض البحر،
مُشتعلاً بالمسيح الذي صُلب من أطراف أصابعه في السيرك،
المسيح الذي، بالسّمّ، زوجَتُهُ
كَوَتْ قلبه وهو يتناول عشاءه الأخير
في معرض لسلفادور دالي على حافّة يهوديّة.
إذ في الشُّرفة التاسعة يتنفّس المسيح، نداء بيتهوفن،

إذ دقات ساعة هايدن تخرب سياق العواطف،
إذ أوركسترا نشيد العالم، تغنّي سقوط السيّد،
من عرش الطفولة إلى المهرجان،
تُحيط به جملة من القرارات.

٣ ـ الفجر قرب ضريح أوفيليا

ـ ١ ـ

ما الذي كان سوف يحصل،
لو أنّ العالم، مُقبلاً، آستدار إليك
وملأتْ راحتَيْك رائحة المرأة والبحر.
وفي الخفية آنسللت إلى حضن النوم،
مُعَوّلاً على مهارة الجسد الذي يتميّز.
وحين يَعْبر الخوف نلتقي.
النوم فرات، جرح الجسد الذي تقطفه الأغاني،
من عتبة الباب حتّى السرير،
النوم غصن يكسره الحبُّ،
في الشتاء، رائحة الكستناء والأسماء،

وجوه الشّيوخ تمحوها الأسئلة.
لو أنّك آستدرت، وملأتَ راحتَيْك بالأغاني،
وغسلت وجهك الطفل، ومحوت الأسئلة.
لو آستدار إليك الصبح، وقبّلك فوق الشّفتَيْن،
وأنت تحملُ حقيبةَ المسافات، شاهراً عُريك الأوّل.
وإذ يعبر الماء ما بيننا نلتقي.
العالم سؤال، لوجهك الطفل وجه يشبهه،
لروحك هشاشتُهُ وقدسيّتُهُ المُرّة.
هل تصرخ أنّ الوقت صمتٌ وأبوابٌ ونوافذُ وقلاعٌ من الحنين،
الحنين الراعف منذ الطين الأوّل، حتى التربة الأخيرة.
تربة النزيف العظيم، قرب مائدة العشاء الأخير،
قرب الشّقاء والأسرار التي تمدّ لها يدك وخطاك.

- ٢ -

هباءٌ بقوّة الضوء،
كنت ترى إليه كيف يتقدّم في عامه الثامن عشر،
في العسكريّ الهزليّ، وآتّجاه الكلمات التي تشيخ.
هباءٌ يأتي في التاريخ السّرّيّ للشرق،

أسوار ترتفع، أدراج تنحدرُ، لغة خشب.

هباء.

يحتضن الحصار قلوبنا.

من ترى يستطيع الغناء.

بين جالية تشتري القلب، وحاشية تطعن الروح.

- ٣ -

بين يدي قُبلة ووراثي مساء مكسور.

ماذا يحدث لو أنّ السماء صافية،

وصادفتُ المرأة التي صادفتها ذات صيف.

لو آشْتمَّ الجسدُ رائحةَ المرأةِ والتّرابِ ومنامات البشر،

ماذا كان ينقص،

لو شُفيتُ من رؤيا الصباح وحصار المفردات والتاريخ المنطفىء من الرائحة التي آحتلّت رائحتي.

- ٤ -

قبل ذلك عايشتُ الموت بكلِّ شهواتي.

الرصاص المتناثر في الشوارع، البطالة، مذابح العواطف،

الوطن الضائع والدخان الأبيض في الريف.
كنت جاهزاً لأكون ضحيّة الحرب،
إلى أطراف العالم، والأشجار مُلَطَّخة بالدم،
كان الجوع إلى الكسل، الغناء، كأس الشراب،
الموت بعد ظهيرة مُشمسة.
لم تكن الحكمة، تلك كانت الشهيّة والمحبّة،
الطفولة والرصاص المألوف في الريف والمدن.
كانت الدبّابات والسجناء والمفقودون والأرامل،
الجنون إلى النهر والعدالة.
كان الحريق في الغابات وزوايا المدن،
الشمس والمحطات والنساء خالية.

ذلك الأرق الذي يُصيب النساءَ والأشجارَ في الخريف.
كأنَّ الوطن لم يعد صالحاً للسكن.
قبل ذلك، السماء الصافية، الحمام الأزرق، اللغة،
اليدان مرفوعتان بآتّجاه الربّ،
الخشب الأخضر، الحصان،
الحزن في الوطن والمنفى، رائحة الشاي والمرأة،
دم البهائم والشهداء.

الوجع في القلب، الموسيقى في جسد العالم،
الحبّ الذي سبب ما حدث.

فاصلة

شكراً،
للمساء النّحيل، للسنونو الحلو.
للصباح الذي آنتشلَ القلب من فتنة الزهر،
للبنفسج، للياسمين.
للنوافذ مفتوحةً، للنداء الطريّ.
شكراً لآنية الزهر في الصبح،
لسيّدة تُعِدُّ قهوتَها وتُداري مساء مضى.
للجاز، للعازفين في آخر الليل،
لطيور المساء.
للمعاطف المَطَريّة، للنوم، للسيّدات.
للسؤال الصغير، للتّمتمات،
للنّدى الرّطب يفتح بؤبؤ العين وباب المَسَرّة،
لمريمَ أو لجميلة.
شكراً لسورة مريم.

مِـنْ

من تلك الطّرقات.
من وَجَعِ الأشجار اللّيلة الزرقاء
من رَفٍّ صبايا يعبرْنَ سريعاً. من راياتٍ تسقط في ذاكرتك
من حُلْمٍ حلوٍ، من ناي، من أغنية تتذكّر بعض مقاطعها
من شعرٍ يفلت كالوقت، من زاوية
من رَفٍّ عصافير، من همس يسبقك، من نصل يتبعك
من شجرِ الورد الأحمر والقاني والأبيض والزهري.
من قُبَّرَةٍ تشدو في الروح، من شجر يتأجّج في القلب
من سُفنٍ منسيّةٍ، من أسماء
من وردٍ، من حبٍّ، من دِقّة شعر
من صُبْحٍ يصحو مُلتهباً، تتبعه المخلوقات، صبحٌ يصحو تَحْمِلُه آياتُ الفتنة
ويُدوّره رأس مفتون، ليَفْتَتِنَ الورد، ليَفْتَتِنَ الشّعر، ليَفْتَتِن الناي
ليُرسل من صحو الخمّارات صبيّاً مكسوراً بالنشوة
من تلك الطُّرقات ممرّ العالم، حانتها، أرصفة الصحف اليومية

جيش المنبوذين، أعياد الصيادين، قافلة الشهداء.
من تلك الطّرقات تعود إلى البيت
تمرُّ إلى البيت، ثملاً أو منتحراً، أو قد كسرتك العادة
حين تُهَجِّي أدراج مصاعدها في الوقت هبوطاً بين شتاءين طويلين
بين رصيفين، بين آمرأتين
بين العادة والأخرى ورقٌ يسقط، ثقب آخر في القلب
يسقطُ من حزنٍ أو فشل أو وطن عابر، من ذكرى الموسيقا والقهوة قرب البحر ورائحة الصّفصاف والرمل الناعم، حين يجانب أصبعك الأوّل أصبعها الأوّل ويمر على خدّك برق حرارتها. تلك الرائحة المجهولة . تلك الحامضة، تلك الممزوجة بالأنثى،
بلُهاث المرأة، تلك المعروفة والمشروحة في التفسير الأوّل من جمر الأُنثى، من فاكهة الشكّ
تلك يدٌ تحتلّ يداً وهواء يَعْبُرُ سيقان القصب الناعم وهو يئنّ، عن مفردة تتكلّم وهي تشعّ، عن جرح في الزينة، في القلب الساخن، في الشعر المكسور إلى الحُبّ، في الشعر المكسور إلى صور الناس المحتفلين في عيد الأرملة الأوّل والطفل المذبوح من الحُمّى
في أغنام الرعي، في الحيوانات الوحشيّة، في السُّجناء، في الطلقة قرب جدار الموت، في الأسلاك الشائكة. في السُّجناء المكسورين من البرد، المكسورين من الخوف، السُّجناء المُقتادين صباحاً صوب الموت السجناء المُقتادين إلى الريف. المُقتادين من القبو إلى الطلقة.

موت في عدن

إلى أحمد جابر

- ١ -

تدلَّلْتَ في الوقت الأوّل،
وفاتك الوقت الثاني.
وحدهم الصّيارفة يعرفون،
إذا كان ثمّة وقت آخر.
فيك من جسد الشيخ عثمان قطعة حبّ صغير،
ومن جوعِهِ جسدٌ لآمرأة،
يرقد قرب سريرها البحر.
تأتي إليك،
في يدها كمشة من مواويل،

في فمها ينشد الطير.
تأتي، كي تراك تقلّبها،
تشدُّ أصابعها خلف ظهرك:
خُذني بعيدًا، إلى المهرجان،
في دمي ثرثرات طويلة،
روحي تَحنّ إلى الضوء،
يدي يبست في هواء الحموضة،
حين يُلامس الجوع أصابعي، أنتشي بالحياء.
حضرميّة، أثيوبيّة، صوماليّة، عدنيّة:
سُرّتُها فضّة،
يداها كلام،
لهائها عجين من الخوف،
يُشبه توت الراعي.
ليس فماً
هذا الذي تُقَبِّلُهُ،
بل نداء طويل.
كلما تهجّيته يتخطّاك في جوعه للنديم
وغواية الدلال.

حرير الإيديولوجيا.

أم دوار القات.

باريس ـ عدن.

عشرة في الكلام.

نَدَمٌ في الخُطى،

طَرَبٌ في رجوع السؤال.

ذَهَبٌ في الأصابع،

نَرْجِسٌ في حديث النساء،

في نومِهِنَّ الجَفول،

في الاستدارات،

عشرة في الثواني.

في الشيخ عثمان،

تصدح قُبَّرَةٌ للمسافر،

إطراق سعدي،

إلتماعاتُ فوّاز،

صمتُ الغراب.

سؤال المسافر:
أين عدن، أين هي الجنّة؟
ها هم الشّهداء، ها هي الاشتراكيّة.
الوقت مرّ من بوابات رأس المال،
كارل ماركس يتجوّل في التّواهي،
لينين يتسوّل في كريتر
أما الحكمة، فهي ترقد عارية،
في سرير سالم ربيع علي في المعاشيق.

زوّار الكلام

- ١ -

إمرأةٌ تجلس إلى جواري،
ليست صديقتي،
أبراج الكلام والنوم،
كنا نتناوب على حراسة اللّيل
بينما قطعان المنامات تجرح السكون
هناك أشياء كثيرة لتُقال،
عن رجل وآمرأة،
الكلمات تتساقط في قصيدة يكتبها المنفى،
ثمّة وقت أصبح خلفنا، لكنه يتقدّم
فِتْنَةٌ ضائعة...

- ٢ -

رسائلُ تأتي من صديقٍ بعيد،
تتحدّث عن رجلٍ يموت.
كُلّما جاء ساعي البريد،
أشمُّ رائحة الحديث،
وأنظرُ نحوَ الرّجل في المرأة،
قبل أن يجفَّ الحبر في نشوة اللّغة.

- ٣ -

جرسٌ مكسور مُعلّقٌ في قَسَمات المارّة
موتى مُكَدّسون في الشاحنات
وجوه النساء والخيول،
آبارُ الشقاء في الريف،
إمرأة تختفي في طعنة الدهشة،
تُجفّفُ قميصها من بُثور المنامات.
الجنودُ يُعلّقون الفتيات والقُبّعات
على الأشجار.

الخريفُ يأتي من نوافذ السُّجون
والحانات.

- ٤ -

كأنَّ أحداً في بلد بعيد يُراقبك،
ينامُ في سريرك المهجور.
كأنَّ الحريق لا يُحصى...
عصافيرُ الذبول تخرج من شقوق النوم.
في ممرّات الوقت عطور نساء الآخرين،
نساء الأرق وسُكّان باريس،
زوجاتُ عُمّالِ مطار لندن.
في رَذاذ الضّوء، تتقدّمُ قوافل الغزلان
والصّفصاف.
في المساء ينحني القَرَنْفُل،
لأضرحة المارّة.
هنا حانة للتائهين،
هناك ظهيرة للموت.
وفي الأمسِ يتسلّل أحد.

ليُرَتِّبَ بقايا الكلام قرب النهر.

- ٥ -

تُعِدُّ وليمة لاثنين.
الثاني ينام في سرير الأوّل،
الأوّل ينظر من ثُقْبِ الماضي.
بين اللّيل والصباح،
مثل غيمة صغيرة، تنتظر المواعيد البعيدة.

- ٦ -

غابةٌ من الأسماء خَلْفَ ظهري.
قاطرةُ المودّة الضائعة.
سُجناء وعُشّاق ومُطاردون
ليلُ المقهى طويل.
يباسُ الحنين.
نواكشوط:

صمتُ المُحيط،
شجرة وحيدةٌ
الغُبار يأوي إلى النوم.
لا ضجّةَ. لا رنينَ كأس،
لا آلْتفاتة.
كانت الطائرة القادمة من داكار
تُحَلّق وحيدة،
كعلامةٍ في دفتر العقوبات.

- ٧ -

يُشْبِهُ رسّاماً يابانياً على شطِّ دجلة:
صموئيل شاهين
يصطادُ النساء في الحيِّ اللاتينيّ،
من خَلْفِ زُجاج المقاهي،
وصهيل الكحول.

- ٨ -

عند ضِفاف السين،

حقائبُ في قطار الفجر،
من أصفهانَ، أم من حلب،
هذا النَّمَشُ الأبيض الخفيفُ الفاتح.
من حنطة الأتراك وعجين الأكراد.
من ينابيع الزهور
تحتَ سقوفِ البُحَيْرات العالية.
ذلك الأبيضُ الواضحُ على مدار الوقت،
المستورُ فوق الرُّكبة وتحت السرّة.
الأبيضُ بالأبيض الورديّ.
مهرجانُ القهوة بالحليب، بضوء العين،
من كوبنهاغن، من آستوكهولم
ذلك الصداع الرخامي.
من مراكش، من الأندلس،
ذلك المنام الأخضر.

- ٩ -

باريس ثَمَرَةُ العرشِ المُحَرَّمَةُ،
وردةُ التاج العالية،

سيائجُ أسوار العالم،
فُلٌّ في حدائق الآخرين
شهوةُ البحّار والمسافر،
قصائدُ مُتفرّقة،
في جيوبِ شُعراء الرصيف.

قناديل لرصيف أُوروبي

إلى جوزيف سماحة

- ١ -

لا وطنَ، لا آمرأةَ، لا نقود،
ليس سوى الرّوحِ تتجوّل كنملة وحيدة،
قلبٌ يتفحّمُ كوردة الأسى الصباحيّ،
سطوح من الحزن على آمتداد الفشل.
يتامى وهامشيّون،
ذاك زمن ينقرض.
وأنت تقرأُ في خرائط البلدان،
بقايا فروسيّة تندثر.
لو كنت مكان بول إيلوار لأطلقتُ الماضي

في آتّجاه رياحِ المستقبل القديم.
ليس مكان،
تلك حرّيّةُ رأس المال،
عندما يذهبُ الصبيّ من النوم نحو الآلة،
لتتكاثر مفردات العزلة.

- ٢ -

لا وطنَ، لا آمرأةَ، لا نقود.
وكيف يأتي الوطن ؟
هل يستأجر مقعداً في الدرجة الأولى،
ليأتي نحوَ هذا الجفاء الطويل ؟
هل تأتي النّساء، مُلَوّحاتٍ هكذا بالقبعات الإيطالية،
سافراتٍ عن الفواكه المحرمة ؟
هل تُحضِرُ إليكَ النقود
وأنت تُلَوّحُ بديون الماضي ؟

- ٣ -

لا وطنَ، لا آمرأةَ، لا نقود.

منذ زمنٍ طويل ونحن نسير نحو الحافّة،
نُلامس أصابعَ النّساء في أواخر الصيف،
كأنّ الكؤوسَ بقايا روائح المرأة والوطن،
كأنَّ الصّباحاتِ الجديدةَ تدلّنا نحو أمس بعيد،
عندما كُنّا نداعب الخلجان الصغيرة،
ونمضي الوقت في مُقارعة الفشل.
سنين طويلة ونحن هناك،
نُصغي إلى خرير أرواحنا،
التي تذبل بأناقة طيور البحر.
كانت الرائحة تصعد ولا تصل.
كان المساء يعدُّ أصابعه ولا يقترب.
ذاك كرنفالٌ بعيد في التّراب والنهر والطفولة،
تنكّر في ثياب ضجر متأخر،
موت طريّ.

- ٤ -

لا وطنَ، لأنَّ جدراناً من اليأس تنمو،
فوق عشب المساءات الصغيرة.

لا آمرأةَ، لأنَّ رُمّان الحقول،
أبعدُ من مَصَبّات الأنهار
لأنَّ القطاراتِ والحقائبَ،
أشهى من الدّمعة الوحيدة في الظلام.
لا نقودَ، لأنَّ البحرَ ظلَّ يكبر
حتّى بَلَغَ نوافذ الجيران
وآحتلَّ أدراجَ المنامات.
ماذا يُمكن أنْ أقولَ للقبلة.
وهي تتدحرجُ بنعومةِ مساء الأمس الطليق،
من شفة الآنسة «س».
للجرحِ وهو يصرخُ في أباريقِ كلام الآنسة «ج».

- ٥ -

كان يُمكنُ آستئجارُ مساء وحيد
لخلوة بعيدة.

نوڤمبر الرمادي
٩

مقابر لشتاءات الحبّ
١٩

مِـنْ
٣٧

موت في عدن
٣٩

زوّار الكلام
٤٣

قناديل لرصيف أُوروبي
٥١

في محفوظات دار الجديد(*)

عبّاس بيضون

خلاء هذا القدح

١٩٩٠

شوقي أبي شقرا

لا تأخذ تاج فتى الهيكل

١٩٩١

يوسف بزّي

رغبات قويّة كأسناننا

١٩٩٢

(*) رُوعي في ترتيب هذا المسرد سنة النشر فتسلسلُ أسماء الشعراء الألفبائي.

عبّاس بيضون

حُجرات

١٩٩٢

محمود درويش

أحد عشر كوكباً

١٩٩٢

وديع سعادة

بسبب غيمة على الأرجح

١٩٩٢

بول شاوول

أوراق الغائب

١٩٩٢

جوزف عيساوي

قصائد المنزل

١٩٩٢

اسماعيل فقيه

ليس غيابك

١٩٩٢

عيسى مخلوف

عُزلة الذّهب

١٩٩٢

زاهي وهبي

صادقوا قمراً

١٩٩٣

محمود درويش

أَرى ما أُريد

١٩٩٣

سيف الرّحبي

رجل من الرُّبع الخالي

١٩٩٣

عصام العبدالله

سطر النمل

١٩٩٣

سعدي يوسف

جنّة المنسيّات

١٩٩٣

نحنُ بقايا المُنشدين في آخرِ الليل
لنا أوطانٌ وأمّهات
ذكرياتٌ صغيرة وقصص حُبٍّ بعيد
نحنُ آخرُ الهامشيين
على ضجّة الجاز ، تحتَ سماء النّيون
فرحُ أرصفةِ أوروبا .